من كليلة ودمنة حتى فاكهة الخلفاء.

تعتمد قصص الحيوان على الرمز بوصفه وسيلة فنية تهذيبية، يتمكن عن طريقها الكاتب من نصح ووعظ وإرشاد المتلقى بطريق غير مباشر هو السرد على لسان الحيوان، ومن هنا ارتبط هذا النوع الأدبى بالحيوان [*]. وقد أطلق عليه **د. محمد التونجى** تسمية: (أدب الحيوان)؛ وعرفه بأنه: « عبارة عن قصص رمزية يحرك كاتبها حيواناته كما يشاء، ويُنطقها بما يريد، وهدفه من ذلك قول ما لا يستطيع قوله على لسانه، أو على لسان إنسان آخر؛ لظروف تمنعه من التصريح »[1]. وربما كان رأى **د. عبدالحميد يونس** أدق من حيث التقسيم والتصنيف والتعريف لهذا الجنس الأدبى؛ حيث ذهب إلى تصنيف حكاية الحيوان إلى نوعين أدبيين يختلفان شكلاً ووظيفة: النوع الأول هو الخرافة . وهو المنطبق على فاكهة الخلفاء . والثانى: ملحمة الحيوان؛ وقد عرف الخرافة بأنها: « عبارة عن حكاية حيوان تستهدف غاية أخلاقية، وهى

(*) أطلق "جيرار جينيت" على هذا النوع الأدبى: (الخرافة الحكميّة أو الخرافة الحيوانية)؛ وذهب إلى القول بأنها: "أمثولة ذات وظيفة إقناعية" انظر: جيرار جينيت: خطاب الحكاية "بحث في المنهج"؛ ترجمة: محمد معتصم، عبدالجليل الأزدى، عمر حلىّ؛ المجلس الأعلى للثقافة، ط2، 1997م، ص 244.

(1) د. محمد التونجى: المعجم المفصل في الأدب (جزأن)، دار الكتب العلمية . بيروت، ط1، 1993م، ص 45.

قصيرة تقوم بأحداثها حيوانات تتحدث وتتصرف كالأناسيِّ، وتحتفظ مع ذلك بسماتها الحيوانية وتقصد إلى مغزى أخلاقى »[1].

وتحمل كتب التراث أشتاتاً من الخرافات عن الحيوانات والجمادات والأفلاك والنباتات، ولعل أشهر الكتب . على سبيل المثال لا الحصر . التى ظهر فيها هذا النوع من الأدب الرمزى هى: "مجمع الأمثال" "للميدانى"، ففيه نماذج من إنطاق الحيوانات كلاماً، وكذا كتابى: "الحيوان"، و"البيان والتبيين" "للجاحظ"، وكتاب "حياة الحيوان" "للدميرى"، و"محاضرات الأدباء" "للراغب"، و"البصائر والذخائر" لأبى حيان" و... إلخ. وعلى الرغم من ذلك يُعد "ابن المقفع" ت152هـ، المؤصل الأول أو المؤسس الحقيقى لهذا النوع الأدبى في التراث القصصى العربى المدون، حيث استعار « ما وضع على ألسنة البهائم والطير في خلق منظومة رمزية لنص مضاد للسلطة، وكان "كليلة ودمنة" أول نص مدّون لهذه الحكايات والخرافات في إطار الثقافة العربية »[2]. فظهرت بسببه كثير من الكتب النثرية والمنظومات الشعرية، التى تحاكيه وتنسج على منواله إلى أن جاء "فاكهة الخلفاء" بوصفه آخر حلقة . قبل العصر الحديث . في سلسلة الكتابات الرمزيّة أو القصص على لسان الحيوان، « فإذا كان كتاب كليلة ودمنة . بشهرته العربية والعالمية الطاغية . هو أول كتاب في تراثنا القصصى ينتقل بقصص الحيوان الرمزية العربية من مرحلتها الشفاهية إلى

---

(1) د. عبدالحميد يونس: الأعمال الكاملة؛ مجلد (1)؛ قام بالجمع والتنسيق: عائشة عبدالرحمن الخميسى؛ تقديم: أحمد على مرسى، محمد الجوهرى، مصطفى جاد؛ المجلس الأعلى للثقافة . القاهرة؛ 2007م. ص435.

(2) د. ضياء الكعبى: السرد العربى القديم، . مرجع سابق . ص 237.

مرحلتها الكتابية، فإن كتاب فاكهة الخلفاء هو آخر كتاب في التراث العربى على لسان الحيوان »[1].

وقد تتبع ***د. محمد غنيمى هلال*** أشهر الأجناس الأدبية ودرسها في نواحيها المقارنة ليوضح كيف تبودلت الصلات بين الآداب المختلفة؛ وكان من ضمن هذه الأجناس التى رصدها (القصة على لسان الحيوان)، حيث بحث جذورها التاريخية القديمة، وكيف نشأت شعبية أو أسطورية ثم أخذت في الارتقاء كجنس أدبى له مكانته، وقد توصل في دراسته المقارنة للخرافة أو الحكاية على لسان الحيوان إلى أن ترجمة "ابن المقفع" لكتاب "كليلة ودمنة"، من اللغة البهلوية إلى اللغة العربية . حوالى القرن الثامن الميلادى . كانت سبباً في خلق هذا الجنس الجديد في الأدب العربى القديم، ثم توالت المؤلفات التى حاكته ونسجت على منواله نظماً ونثراً؛ **يقول د.غنيمى هلال:**

« كانت ترجمة عبدالله بن المقفع هذه سبباً في خلق هذا الجنس الأدبى الجديد في اللغة العربية؛ ذلك أن حكايات الحيوان في الأدب العربى القديم قبل كليلة ودمنة كانت إما شعبية فطرية تشرح ما سار بين العامة من أمثال، وإما مقتبسة من كتب العهد القديم، أى ذات طابع دينى يتصل بالعقائد، وأما ما عدا هذين فمتأخر عن كليلة ودمنة ومتأثر به »[2]. ولعل الحالة السياسية المضطربة، التى كانت تسود البلاد في زمن المنصور الطاغية الذى يشبه . من

(1) فاكهة الخلفاء: مقدمة المحقق (د. محمد رجب النجار)، ص 7 .

(2) د. محمد غنيمى هلال: الأدب المقارن، نهضة مصر . القاهرة؛ 2004م، ص 151.

حيث طغيانه . "دبشليم"، كانت من الدوافع الأساسية التى ألجأت "ابن المقفع" لترجمة هذا الكتاب.

وقد شُغف الكُّتاب والشعراء بمحاكاة "كليلة ودمنة" فأخذوا ينسجون على منواله، فمنهم من عارضه، ومنهم من نظمه شعراً، ومنهم من حذا حذوه فألف وأبدع، ففى العصر العباسى الأول « عهد "جعفر بن خالد البرمكى"(*) إلى "عبدالله بن هلال" بترجمة الكتاب مرة ثانية له(**)؛ ولكن لم يصل إلينا شىء من هذه الترجمة. كما كلَّف جعفر "أبان اللاحقى" بنظم "كليلة ودمنة"، فنظمه في 14000 بيت، لم يبق منها سوى 76 بيتاً ذكرها "الصولى" في كتابه "الأوراق"، وهناك أيضاً: "نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة" "للشريف ابن الهبّارية" المتوفى سنة 504هـ، وهو الذى ألف كتاباً آخر على شاكلته سماه "الصادح والباغم"، كما نظم الكتاب شعراء آخرون منهم: "على بن داود" و

(*) كان "جعفر بن خالد البرمكى" من المثقفين الفرس الذين يعملون في خدمة البلاط العباسى « ولمّا كان زمام السلطة الثقافية في بدايات الدولة العباسية بأيدى الفرس . ولاسيما البرامكة . فقد بادروا إلى التعصب لكتاب "كليلة ودمنة" ورصدوا الجوائز السنيّة لمن يحاكيه شعراً حتى يسهل حفظه وذيوعه بين العامة والخاصة » انظر: د. محمد رجب النجار: التراث القصصى؛ ص 143. وقد رد د. محمد رجب النجار إلى الشعوبية سر الاهتمام الكبير بكتاب "كليلة ودمنة" يقول: « لعل وازع الشعوبية . الصراع المشتجر بين العرب والفرس سياسياً وثقافياً . دفع البرامكة . أحفاد الفرس . إلى تبنى كل مأثور يعود إلى الثقافة الفارسية . ثقافتهم الأصلية . فقد وجدنا: "يحي بن خالد البرمكى" وزير المهتدى والرشيد يكافئ "أبان اللاحقى"بعشرة الآلف دينار على منظومته الشعرية المطولة "لكلية ودمنة"، وأيضاً: أخوه "الفضل" كافئ الشاعر بخمسة الآلف أخرى » انظر: نفسه، ص143.

(**) كانت الترجمة الأولى "لابن المقفع".

"بشر بن المعتمر »[1]. « ثم نظمه في عهد "صلاح الدين" "أسعد بن مماتى" (ت606هـ) فى مصر... ثم نظمه أيضاً "عبد المؤمن بن الحسن بن الحسين الصاغانى" سنة 640هـ بعنوان "غرة الحكم في أمثال الهنود والعجم"، كما نظمه "جلال الدين الحسن بن أحمد النقاش" في القرن التاسع الهجرى وغيرهم كثير، كان أخرها في العصر الحديث منظومة "الشيخ محمد بن عبدالرحيم ترة" المتوفى سنة 1931م، تحت عنوان: "زعموا أن" أو "كليلة ودمنة" ... وللأسف، فإن كثيراً من هذه المنظومات قد ضاع، ولم يصلنا، وبعضها لا يزال حبيساً في مكتبات الغرب، خاصة: فيينا وميونخ ومكتبة المتحف البريطانى، وقلة قليلة هى التى طبعت »[2].

وعلى هذا الأساس يُعد كتاب "كليلة ودمنة" هو العمدة أو المؤصل الأول، فلم يقتصر تأثيره على المنظومات الشعرية؛ بل تعدى ذلك كله، حتى وصل إلى الكتابات الفلسفية والفكرية. فمن الفلاسفة "إخوان الصفا" فى (القرن الرابع الهجرى) فقد وظفوا الحيوانات وأجروا على ألسنتها آراءهم الفلسفية، فجاءت مبادئهم الفكرية داخل قوالب قصصية مبنية على الحوار والمناظرة لعالم الحيوانات والجن والإنسان ففى رسالتهم "**تداعى الحيوانات على الإنسان**" تقرأ فى نهايتها تصريح الإخوان بغرضهم وباعثهم الحقيقى من توظيف الحيوان « ونحن قد بيّنا فى هذه الرسالة ما هو الغرض المطلوب على لسان الحيوان، فلا

---

(1) د. محمد فتحى الريس: ال على لسان الحيوان بين العربية والفارسية، مجلة كلية الآداب . جامعة القاهرة ، المجلدان : (32 . 33)، الجزءان : (1،2) ، مايو، ديسمبر (1970.1972م)، ص 336.

(2) د. محمد رجب النجار: التراث القصصى؛ . مرجع سابق . ص 143 . 144.

تظنن بنا ظن السوء، ولا تعد مقالتنا ملعبة الصبيان، ومخرفة الإخوان لأن عادتنا جارية على أنَّا نبين الحقائق بألفاظ وعبارات على وجه الإشارات وتشبيهات على لسان الحيوانات، ومع هذا لا نخرج عما نحن فيه، عسى أن يتأمل المتأمل فى هذه الرسالة وينتبه من نوم الغفلة، ويتعظ من مواعظ الحيوانات وخطبهم، ويتأمل كلامهم وإشاراتهم لعله يفوز بالموعظة الحسنة »[1].

هكذا قام القص الرمزى بالدور المنوط به على أكمل وجه، لما وُجد فيه من خير معين، وأحسن خادم ومطيع، فعلى لسان الحيوان لبى المفكرون نداء أفكارهم المكبوتة . بسبب القمع السلطوىّ . ووصل الكُّتاب إلى غاياتهم المقصودة، وكان من أبرزهم "سهل بن هارون" فينسب إليه كتابان أحدهما بعنوان: "ثعلة وعفراء" والآخر . ونسبته إليه فيها نظر . بعنوان "النمر والثعلب" ؛ وأيضاً: "محمد بن أبى القاسم بن على القرشى المالكى" . المعروف بابن ظفر الصقلى المتوفى سنة 565هـ . فألف كتاب: "سلوان المطاع فى عدوان الأتباع"؛

(1) إخوان الصفا: تداعى الحيوانات على الإنسان، تقديم: فاروق سعد، منشورات دار الآفاق الجديدة . بيروت . ط2، 1980م، ص 263 .

وكتب "عبد السلام بن أحمد بن غانم المقدسى" (*) . المتوفى سنة 678هـ . "كشف الأسرار عن الحكم المودعة فى الطيور والأزهار" (**).

ومن اللافت أن "**النص الألفليلى**" حظىّ بنصيبٍ وافر من قصص الحيوان حيث « أفردت الليالى صدرها لمجموعة كبرى من هذه القصص جاءت متصلة فى قرابة نصف مجلد من مجلداتها الأربعة، كما جاءت متفرقة، متناثرة، فى سائر قصص الليالى . ككحكايات فرعية . ترويها شهرزاد تأكيداً لمبدأ أو تدليلاً لقضية، أو تفسيراً لسلوك، أو شرحاً لبعض الطباع الإنسانية، أو حسماً لموقف، أو برهاناً لفكرة »(1). فتطل حكايات الحيوان برأسها من مطلع الحكاية الإطارية لليالى؛ عندما تطلب "شهرزاد" من أبيها أن يزوجها "شهريار" لتكون سبباً فى إنقاذ بنات المسلمين، وحيلة لخلاصهن من المصير الأسود الذى يقضى عليهن الواحدة تلو الأخرى فجر كل صباح؛ ويجد الأب فى طلب

(*) هو أحد المبرزين فى الوعظ والنظم والنثر وينسب إليه كتاب: "كشف الأسرار"، ألفه فى عصر "السلطان بيبرس"، فأتى فيه النصح والوعظ . بطريق غير مباشر . على ألسنة الطيور والأزهار، انظر: د. محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى، . مرجع سابق . ص 74.

(**) ذكر د. شوقى ضيف أن: "هذا الكتاب الطريف يقع فى 30 صفحة، وقد جعله المؤلف على ألسنة الأزهار ثم ألسنة الطيور ثم ألسنة الحيوان، ليكون موعظة لأهل الاعتبار، وتذكرة لذوى الأبصار والاستبصار، فهدفه التعليم والوعظ ودفع الإنسان إلى السير فى الطريق السديد، واعياً لحكمة الله فى خلقه، متعظاً بما تورده عليه الحيوانات والأطيار والأزهار من مواعظ وحكم وأمثال" انظر: د.شوقى ضيف: تاريخ الأدب"عصر الدول والإمارات"، . مرجع سابق . ص816 . 817.

(1) د. محمد رجب النجار: التراث القصصى . مرجع سابق . ص146.

ابنته مخاطرة بالنفس، فيرفض طلبها بشدة، ولكنها تُلح عليه فيحاول أن يثنيها عن قرارها بحكاية "الحمار والثور مع صاحب الزرع" [1].

وكان "السيوطى" (ت911هـ) معاصراً "لابن عرب شاه"، فألف المقامات الرمزية، وجاءت مقاماته قائمة على المناظرات والمساجلات، وظف الرمز فى ثلاث مقامات هى: "مقامة الرياحين"، و"المقامة المسكية"، و"المقامة الياقوتية"؛ وقد « اتخذت هذه المقامات الثلاث شكل المناظرة، وتوسل "السيوطى" أن يفضح بها آليات السلطة القمعية فى مجتمعه، سلطة المماليك الجراكسة، ولذا كان الموضوع الجامع بين هذه المناظرات قضية الحكم ولمن يكون ؟! »[2].

هكذا توالت الأعمال الأدبية السردية الرمزية التى اتخذت من الرموز الحيوانية أبطالاً وشخوصاً، إلى أن جاء كتاب "فاكهة الخلفاء" آخر حلقة . قبل العصر الحديث . فى سلسلة الكتابات الرمزية.

---

(1) هى أولى قصص الحيوان فى ألف ليلة؛ جاءت . قبيل الليلة الأولى . فى مدخل الليالى. ولمزيد من التفاصيل راجع: ألف ليلة وليلة: إعداد: رشدى صالح، دار الشعب، د.ت، ص 18 . 20.

(2) د.ضياء الكعبى: السرد العربى القديم؛ . مرجع سابق . ص 238 .